قصة قصيرة

وقائع مروية عن نبع التكية

عبد الرحمن حمادي

لا اذكر عدد المرات التي شربت فيها من نبع « التكية » ، وكذا فإن أحداً من أهالي البلدة لا يذكر عدد المرات التي سقى فيها دوابه من النبع . فهو واحد من عدة ينابيع متجاورة تذوب مياهها في النهر الذي لا يبعد عنها إلا عدة خطوات ، وفي كل مرة كنت أسوق حمارنا من البستان إلى البلدة وبالعكس ، كنت أستريح عند نبع التكية وأسقي الحمار وأتغوّط بالقرب منه كما يفعل جميع الفلاحين ، وكان من الممكن أن تبقى هذه الينابيع مهملة إلى الأبد لولا الذي حدث ذات ليلة .

ما حدث .

في إحدى الامسيات قال رئيس المخفر للفلاحين المتحلّقين حوله بتزلّف في المقهى : إنهم ـ وللأسف ـ لا يعرفون قيمة نبع التكية ، ولما كان رئيس مخفرنا لا ينطق إلا بالعجائب فقد ازدادت حملقة الوجوه فيه ، وبعد أن سحب نفساً طويلاً من نارجيلته تابع :

« ـ هذا النبع يا شباب يشفي من الأمراض ، فأنا قبل أيام كنت أشكو من آلام في خاصرتي ، وأثناء مروري مصادفة مع دورية الدرك نزلنا وشربنا من النبع ، وفي اليوم التالي زال الألم من خاصرتي » .

لم يكن رئيس مخفرنا يريد أن يحدث ما حدث ، ولكن بما أن رئيس مخفرنا صادق صدوق ، فقد شوهد عدد من الفلاحين في اليوم التالي يحملون أوعية مليئة بمياه النبع ، وفي اليوم الثالث صارت النسوة يقطعن مسافة لا بأس بها إلى النبع كي يملأن جرارهن . ولأن رئيس مخفرنا شفي من آلامه بعد أن شرب من ماء النبع ، فإن جميع مرضى البلدة صاروا يشفون بعد شربهم من ماء النبع ، حتى أن جارنا محمود التلاوي شفي من « الديسك » بعد أسبوع من شربه واغتساله يومياً في ماء النبع ، ولم يعد بحاجة إلى عملية جراحية في المدينة . وكان من الطبيعي أن يحضر مرضى القرى المحيطة بالبلدة . واحتاج الأمر بعد شهر إلى أن يصطفّ الناس وينتظروا دورهم ساعات طويلة للوصول إلى النبع والاغتسال بمياهه العجيبة .

يونس الحكواتي .

في المقهى لم يكن ثم حديث يسيطر على جلسات الرجال إلا حديث نبع التكية والمعجزات التي كان يقدّمها إلى الناس . وفي كل أمسية كان يظهر من يعلن عن شفائه أو شفاء أحد أفراد عائلته من مرض ما بفضل مياه التكية ، حتى أن يونس الحكواتي اضطر إلى أن يتوقف عن رواية حكايات عنترة ، فالرجال قد انصرفوا عن حكاياته إلى أحاديثهم عن نبع التكية ، لكن يونس استطاع أن يجذب انتباههم إليه من جديد ، فقد ألقى ذات أمسية فصلاً من كتابه المهترىء ذكر فيه أن عنترة العبسي مرّ أثناء قدومه من بلاد الملك النعمان على نبع التكية ، ومن مياه النبع سقى الجمال الحمراء ، مهر عبلة ، وقال يونس الحكواتي للرجال الذين تحلقوا حول دكّته من جديد :

« وكان العطش يا سادة يا كرام قد بلغ من عنترة مبلغاً كبيراً ،

فتوقف عند نبع التكية ، وشرب شرباً كثيراً ، من بعدها تابع المسير ، وهو من الشوق إلى عبلة يكاد يطير . . » .

وقال أيضاً :

« وذات مرة مرضت عبلة المرض الرهيب ، واحتار في علاجها كل نطّاس طبيب ، فطار عنترة بن شداد يسابق المنية ، حتى وصل إلى نبع التكية ، فملأ ضرفاً من الماء ورجع إلى عبلة الحسناء ، وأنشدها فقال :

يا عبلة يا أحلى صبيّهْ
اشربي من ماء التكيهْ

فشربت عبلة ولساعتها طابت ، ومثل الغزال قامت ، ولسيد الفرسان آبت . . » .

وهكذا كشف يونس الحكواتي ما كان بين عنترة وبين نبع التكية ، وصار الرجال يتشوّقون إلى سماع المزيد من حكاياته ، ومنهم كانت تنتشر إلى القرى المحيطة ببلدتنا ، حيث كانت تعاد روايتها في المضافات مزايدة بوقائع جديدة عن سيرة عنترة مع نبع التكية .

نذور التكية .

للأمانة فإن جدتي كانت هي البادئة بنذر النذور ، ذلك أنها ـ ولا أعرف لماذا ـ نذرت بأن تذبح عند نبع التكية دجاجة من دجاجاتها الخمس البيّاضات لو تاب جدي عن شرب الخمر . وفي صباح اليوم التالي لنذر جدتي استفاق جدي وهو يسعل بقوة ، وبعد أن أفرغ كل ما في صدره من سعال قال لجدتي وهو يلهث :

ـ إذهبي يا رديفة إلى السقيفة واكسري ألفية الخمرة . . عهد الله أنني تبت عن شرب الخمر . . كل أوجاعي من هذا المشروب اللعين، أعرف ذلك.

وكان فرح جدتي عظيماً ، ولم يكد ينتصف النهار حتى كانت تصطحبني معها وهي تحمل أسمن دجاجاتها إلى نبع التكية حيث ذبحتها .

بعد ذلك توالت النذور ، فجارتنا أم عيوش نذرت خاروفاً كاملاً تذبحه على نبع التكية لو أنها تلد ما في بطنها ذكراً ، وجارنا بكور السلقيني نذر كبشاً لو يعود ابنه الذي هاجر إلى مدينة بعيدة قبل سنوات ، وفي الواقع ، لم يبق أحد في البلدة إلا ونذر شيئاً للتكية لو تحققت إحدى أمنياته ، وما أكثر الأمنيات لدى أهل بلدتنا .

نذر جدي .

مرّت أيام على إقلاع جدي عن شرب الخمر ، وكان ذلك مناسبة سعيدة لدى جدتي كي تستأثر بأكبر قدر من جلسات الثرثرة مع جاراتها وهي تروي قصة نذرها الذي تحقق بفضل نبع التكية .

في إحدى الأمسيات ، وكانت جدتي ما تزال تعيش سعادتها بتوبة جدي عن شرب الخمر ، اصطحبتني معها كحفيد مدلّل إلى السهرة عند جارتنا أم قاسم ، وقد أمضت السهرة وهي تروي للنسوة المعجزة التي حققها نبع التكية ، وكيف تاب جدي المدمن لسنوات طويلة عن الخمر .

عندما عدنا كان سعال جدي يستقبلنا عند باب الدار ، ولم نكد نلج العتبة حتى قال بصوته الأجش :

ـ أحضري ألفية الخمرة يا رديفة ، عندي رغبة في الشرب هذه الليلة .

تجمدت جدتي مذهولة في مكانها من طلب جدي ، وبعد أن استوعبت كلامه قالت :

ـ ولكنك تبت وطلبت مني أن أكسر الألفية !!

ـ وكسرتها فعلاً ؟

سأل جدي بلهجة من يفتح باباً للشجار :

ـ نعم . . كسرتها .

قالت جدتي دون أن يفارقها ذهولها ، في حين ـ قال جدي بلهجة غاضبة :

ـ يا شمطاء . . أطلب منك ألف طلب ولا تنفذي ، فما معنى أن أطلب منك كسر الألفية فتكسريها بهذه السرعة ؟!

لم تجب جدتي في حين تابع جدي باللهجة الغاضبة نفسها .

ـ يا شيبة الشؤم ، نذر عليّ لنبع التكية أن اشحذ من باب لباب لو يريحني الله منك .

ثم التفت صوبي وقال :

ـ أنت يا مقصوف الرقبة ، إذهب إلى بيت حنا الاسكندروني وقل له : يسلم عليك جدي ، وأحضر من عنده قنينة خمر حتى أرى من سينزل غداً المدينة ويحضر لي ألفية خمرة بدل التي كسرتها هذه الشمطاء اللعينة .